أولا : الصيد في المغرب القديم

كان الصيد مصدر رئيسي لغذاء السكان المحليين منذ فترة ما قبل التاريخ (إذا استثنينا الجيتوليون الذين كانوا يعيشون في مناطق تفتقر للحيوانات) ، وحتى بعد انتشار نشاط الرعي جعل وجود وانتشار الحيوانات الضارية عملية الرعي صعبة للغاية، لذا كان نشاط الصيد ضروريا للقضاء على هذه الحيوانات وتوفير محيط آمن لحيواناتهم.

كما أن الصيد يوفر للتجارة المنتجات الحيوانية، وعلى رأسها عاج الفيلة ، بيض النعام وريشه، وجلود الأسود والحيوانات البرية، والتي كانوا يبيعونها للقرطاجيين والإغريق ثم الرومان. هذا إضافة إلى بيض الطيور النادرة، وجلود الحيوانات البرية وعلى رأسها جلد السد والنمور. وحتى القردة كانت تباع لتربيها الأسر الثرية.

غير أن السيرك الروماني كان أهم زبون للصيادين منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد ، حيث كان يشتري منهم الحيوانات البرية الحية وعلى رأسها الأسود والنمور والفيلة والنعام والدببة (وهذا ما يشير إليه عدد من المؤرخين أنها كانت تعيش فعلا في افريقيا الشمالية وعلى رأسهم تيتليف

وكان الصيادون يصطادون على متن أحصنتهم الحيوانات الصغيرة، أما الضخمة منها مثل الدببة، والخنازير البرية فكانت المواجهة مباشرة معها باستعمال الرماح والسيوف حتى يتمكنوا منها أو العكس، فكأنها كانت مواجهة حياة أو موت. واعتمدوا أيضا على نصب الفخاخ مثل حفر حفرة عميقة تغطى بالأغصان وأوراق الأشجار لتمويهها ، كما استعملت الكلاب خاصة خلال الفترة الرومانية، وهذا بعدما استعمل بداية من أجل الحراسة، حت ذهب البعض أنها كانت تؤكل من طرف السكان المحليين لكن دون تقديم دليل حول ذلك؟

ثانيا : قدم نشاط الرعي في المغرب القديم

تحدث المؤرخون القدامى عن ملاءمة أراضي المغرب للحياة الرعوية، حتى أنها كانت حسبهم أفضل الأراضي لمثل هذا النشاط، وقال هيرودوت أنه كان النشاط الوحيد في الأراضي بين مصر والسيرت الأصغر، وقد سماهم الإغريق بالنوميد (السكان خلف حدود القرطاجية للمحيط) وربما تحور هذا لاسم نوميديا التي عرفت بها المنطقة (مجرد احتمال مستبعد)، لكنها تشير للأهمية البالغة التي عرفها ها النشاط بهذه المناطق، خاصة بما كان يقدمه الوسط البيئي من ثروة حيوانية، وأراضي رعوية جد ملائمة لهذا النشاط.

تسببت الخصائص الجغرافية لبلاد المغرب في بروز ظاهرة الرعي منذ الفترة النيوليتية (العصر الحجري الحديث) ، حيث وجدت بقايا الأغنام والماعز والبقر أمام رسوم حجرية تبين وجود نشاط تربيتها (حيث أرخت هذه البقايا بحوالي الألف الرابعة قبل الميلاد) بل وحتى استعمال الحصان كان منذ الألف لثانية قبل الميلاد ، ومنه نستنتج أن هذا النشاط لم يأتي مع الفينيقيين بل وجدوه منتشرا بالمنطقة. والدليل تلك المشاهد التي تتمثل في مواضيع الفنون الصخرية العائدة لعصور باكرة، والتي توضح لنا رعاة البقر الأوائل وهم ينزحون بحثا عن الكلأ والماء.

ورغم ظهور وتطور الزراعة إلا أن نشاط الرعي بقي هو الغالب على نشاطات السكان وقد كان يحتل المناطق البور، والتضاريس الصعبة، أو حيث أن تساقط الأمطار نادر، وكذلك كان نشاطا أساسيا بالنسبة للقبائل المستقرة والممارسة للزراعة حيث كانت المحافظة عليه شأنها شأن تقاليد وعادات الأسلاف، ورفضا للتغيير، أو أن يصبحوا عبيدا للأرض، وكذا لأنهم كانوا مضطرين دوما للتنقل مع التوسعات القرطاجية ثم الرومانية.

وعند قيام الممالك الوطنية وقضائها على الفوضى ومحاولتها الحد من تنقل وحركة القبائل البدوية، إلا أن نشاط الرعي بقى هو الغالب على الزراعة. وعموما نجد نوعان من الرعي، في الأول لا تقوم القبائل بالهجرة كثيرا وتزاول نشاطها في مناطق محدودة لفترات طويلة جدا. أما الثاني فالقبائل بدوية حقا ترتحل لمئات الكيلومترات كل موسم بحثا عن الكلأ.

ثالثا : أصناف الحيوانات التي ربيت

1-الأبقار: يمكن القول أن الأبقار قد عاشت بالمنطقة منذ القدم ، وربما كان الثور هو أول حيوان دجن، حيث كانت موضوعا شائعا في الفن الصخري، حتى سميت الفترة التي تعود لها هذه الرسوم بفترة البقريات (ما بين 6000 و4000ق.م) ، وكانت تربيته منتشرة عند الجيتول، لكنها انتشرت أيضا عند المزارعين، ففائدتها لم تكن في اللحم والحليب فقط، بل استغلت في النشاط الزراعي مثل جر العربات وجر المحراث، وحتى ركوبها للانتقال بالعتاد حسب بعض الرسومات الصخرية.

وقد كانت الأبقار من الكثرة لدرجة أن القائد القرطاجي هملقار قد فرض سنة 254ق.م ضريبة على القبائل التي تحالفت مع القائد الروماني ريغولوس بتقديم عشرين ألف رأس من البقر كضريبة حرب ، ويظهر أنها كانت تربى بشكل واسع بمنطقة الشرق الجزائري وبالمناطق الواقعة إلى الجنوب.

2-الأغنام والماعز: يصاحب تربية الأغنام دوما الماعز، ورغم ادعاء البعض بكون هذا الاستئناس دخيل على المنطقة في فترة متأخرة ، غير أن الأبحاث الأثرية كشفت لنا العديد من البقايا الغنمية تعود إلى الألف الخامسة قبل الميلاد، واكتشفت في عدة مجموعات مجتمعة في مكان واحد بأعداد كبيرة، مما يشير إلى أنها كانت تكون قطعان ضخمة . حتى قال عنها بوليبيوس "أنني لا أعتقد وجود مثيل لها في كامل المعمورة. "

وأصبحت لحومها غذاء أساسيا وقل أكل لحوم الفرائس المصطادة لما قد يصاحبه من أمراض وأخطار، كما ربيت بكثرة لتوفير الحليب، مما مكن المرضعات للتوقف للرضع أولادهم بفترة مبكرة وقلل من وفيات الأطفال وازدادت أعداد القبائل كثيرا، كما كانوا يصنعون من جلودها الملابس الجلدية التي انتشرت كثيرا قبل الرومان، وأصبحت تدل على مدى ثراء سكان المنطقة من النوميديين.

3-الأحصنة: كانت منتشرة جدا حتى الصحراء، حيث أجمع على بداية استئناسها في الألف الثانية قبل الميلاد على الأقل، ويشير هيرودوت إلى قبائل الغرامانت وهي تستخدم العربات التي تقودها أربعة خيول ، وازدهرت تربيتها بشكل خاص في نوميديا، حيث صدرت إلى قرطاجة، وربتها الممالك الوطنية لاستعمالها في الجيش، وذكر سترابون أن عدد أحصنة الملك 100000، وقد بالغ المؤرخون في انتشارها وأعدادها (كقول بوجود مليون حصان) لما لاقت من تشجيع من طرف

الحكام على تربيتها فكانت استثمارا ناجحا. ونشير على سبيل المثال أن المملكة النوميدية قد صدرت إلى روما 1000 فرس عام 171ق.م، و1200 فرس في العام الموالي.

ونذكر على سبيل الإضافة الأحمرة التي عرف استعمالها منذ الألف الثانية قبل الميلاد، وانتشر استخدامها عن المصريين ووجد بوفرة ، أما البغال فقد عرفت عند البونيقيين ويبدو أن المغاربة أخذوها عنهم.

4-الكلاب : اكتسب الكلب أهمية خاصة لدى الإنسان منذ فترة ما قبل التاريخ، وجسده الإنسان المغاربي في العديد من الجداريات، ويبدو أنه قد اسأنس مبكرا، واستغل في الصيد وحراسة قطعان الماشية .

5-الإبل: استأنست الجمال خلال الألف الثالثة قبل الميلاد في الشرق الأدنى القديم، وانتشر ببلاد المغرب مع بداية الألفية الأولى ميلادية.

6-الأفيال : تكمن أهمية هذا الحيوان في استخداماته العسكرية، فهو دبابة الحروب القديمة، وقد انتشرت تربيته لدى القرطاجيين، فاسطبلات قرطاجة كانت تسع 300 فيل ، كما رباه واستخدمه الملوك النوميد من ماسينيسا إلى يوبا الأول في حروبهم.

وفي الأخير نشير إلى تربية من نوع آخر هي تربية النحل، وأول من أشار إليها هو هيرودوت في شرق تونس، ويبدو أن السكان المحليين قد اقتبسوها عن القرطاجيين، وامتدت تربيتها حتى موريطانيا غربا، وكانت مصاحبة لحدائق الأشجار المثمرة وكان العسل غذاء هام عند الأهالي، بل كان يعتبر من غذاء الملوك والأثرياء.

رابعا : الرعاة وأصنافهم في المغرب القديم

صنف لنا المؤرخون الإغريق وأولهم هيرودوت سكان المغرب القديم أنهم صنفان، تبعا لطبيعة أرضهم، بدو رحل ومزارعون مستقرون ، غير أن الواضح عشية قيام الممالك المحلية أن امتهان الرعي وتربية الماشية كان أكثر انتشارا من احتراف الزراعة، ورغم الحديث عن محاولات الملوك النوميد لنشر الزراعة في الوسط المحلي، لكن هذا لم يجعلهم يحاربون ظاهرة الرعي وتربية الحيوانات لما كانت تدر عليهم من أرباح في تصديرها، فالخيول النوميدية كانت تتمتع بشهرة بالغة، وكذلك الأبقار التي أثارت أعدادها وجمالها إعجاب شهود العيان من الكتاب الإغريق واللاتين.

أما عن انتشار القبائل الرعوية فنجدها في الاستبس، حيث لها أراضي خاصة بها، لكنها كانت تنتقل بحثا عن الماء وتتكون قطعانها أساس من الماعز والأغنام والأحمرة، أي التي تستطيع العيش في المناخ الجاف وبرودة الشتاء التي تهيمن على التل، وهؤلاء الرعاة هم القبائل الجيتولية بشكل أساسي، حيث نجدها ضاربة فيما بين المحيط الأطلسي وفزان ضمن إطار جغرافي فسيح يمتد عبر السهوب والسفوح الجنوبية لمرتفعات الأطلس، واشتهر الجيتول بكونهم رعاة نموذجيين وكانت حياتهم تشبه حياة البدو العرب حسب سترابون (الذي زار جزيرة العرب) حيث يعيشون حياة قاسية، وينامون في العراء ويرتحلون لمدة أشهر أحيانا، يحملون معهم كل ادواتهم ليلا نهار (أسلحة وأدوات وخيمات...) وفي خلال الصيف كانوا يتركون هذه الأحراش للانتقال إلى الجبال (الأطلس التلي) وتتميز هذه الرحلات بالحروب والصراعات والتحالفات بين نختلف هذه القبائل، وقد حاول ماسينيسا الحد من تنقلها الدائم وتنظيم أراضي نفوذ القبائل لاستخدامهم كحزام أمن على حدوده الجنوبية.

لكن بعد الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، انهار ذلك التوازن بين النشاط الزراعي والحياة الرعوية، وعمل الجيش الروماني على طرد مربي الماشية من الأراضي الواقعة بالمناطق التي شملتها مخططات الاستيطان، ومنعوها من التردد على المراعي الشمالية التي تعودوا عليها من القدم، ليطردوا جنوبا إلى هوامش الصحراء.